الآليّات الحِجاجيّة في سورة "النّبأ"

Argumentative mechanisms in Surat "Al Naba"

أ. أم هاني حبيطة‡

د. محمد مدور§

تاريخ الاستلام: 2020.07.05 تاريخ القبول: 2021.05.23

ملخّص: تتمحورُ تعاريف الحِجاج حول تلك العلاقة القائمة بين مُخاطِبٍ يوظّف من الاستراتيجيّات والحُجَج والآليات ما يُؤثّر به ومُخاطَبٍ يتأثّر ويحقّ له الاقتناع والقبول أو الرّفض والاعتراض. ولعلّ المتتبع لمسار الآليات الحجاجيّة يُقِرّ بمدى التّنوّع والتّجديد الّذي تغلغل في ثنايا النّصوص الدّينيّة وخاصّة ما تعلّق منها بتغيير المعتقد والسّلوكيّات. ما تسعى إليه ورقتنا الموسومة بـ" الآليّات الحجاجيّة في سورة النّبأ" هو الكشف عن الآليّات الحجاجيّة اللّغويّة الموجودة في السّورة عبر الإجابة عن سؤال جوهريّ: ماهي الآليات الحِجاجيّة اللّغويّة في السّورة التي أسهمت في بلوغ المقاصد ونجاح الخِطاب؟

كلمات مفتاحيّة: الآليات؛ الحِجاجية؛ الخطاب؛ القرآن؛ النبأ.

Abstract: The definitions of argumentation rotate around that relationship between the adressee, who employs strategies and mechanisms to affect, and receiver who can accept or reject. Perhaps the follower of this mechanisms path

‡جامعة غرداية، الجزائر، البريد الإلكتروني: habita.omhani@univ-ghardaia.dz (المؤلّف المرسل).

§جامعة غرداية، الجزائر، البريد الإلكتروني: meddour.medj@gmail.com

acknowledges the diversity in religious texts, especially who relates to change belief and behaviors. What our research paper tagged with "Argumentative mechanisms in surat alnaba" is trying to detect the argumentative mechanisms in surah by answering an essential question: What are the mechanisms that contributed to the success of this speech?

Keywords: Mechanism; argumentative; speech; Quran; AL-Naba.

1. المقدّمة: لمصطلح "الحجاج" أبعاده الفلسفيّة، فنظريّات الفلسفة القائمة على الجدل كانت في لبّ " الحجاج"؛ وإذا ما أردنا أن نتتبّع هذا المصطلح، نتمعّن قوله تعالى في حديث إبراهيم-عليه السّلام-:

قال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ المُلكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي الذِي يُحْيي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بالشّمسِ مِنَ المَشْرِقِ فَاتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ فَبُهِتَ الّذِي كَفَرَ واللهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظّالِمِين** ﴾((سورة البقرة / 258)).

ما يُلاحظُ مِن خلال هذه الآية أنّ مصطلح " الحِجاج" جاء مِنَ القُرْآنِ الكريمِ وإليه واضِحًا، فالّذي يُحاجِج يجِبُ عليه أنْ يَمْتَلِكَ مِن الوسائلِ الإقناعيّة المُختلِفة ما يُمكّنه مِنْ إقناع المُتلّقي والتّأثير فيه؛ والتدرّج في عرض الحجج (منطقّي)، فالبدء يكونُ مِن أقلّ الحُجج مرتبةً إلَى أعلاها -حسبَ ما يتطلّبه السّياق-، ومِنْ هُنا، جاءَت الحُجّة الأولى في الإحياء والإماتة، ثمّ الحجّة الثّانية في إتيانِ الشّمس مِن المشرِق والمغرب فكانت الحجّة الأقوى محلّ بُهتان الكفّار.

فالحديث عن القرآن الكريم، حديثٌ عن حجّة إعجازيّة لا يقوى عليها بشر؛ من هنا نطرح الإشكال الآتي:

لمّا كان القرآن الكريم يزخر بالحجج سعيًا لبلوغ المقصد الأوّل منه وهو الإقناع بما جاء به الرّسول صلّى الله عليه وسلّم (الإسلام)، كان لا بدّ أن يملك من القوّة الحجاجيّة

والإقناعيّة ما يكون محلّ التّصديق والبهتان، فماهي الآليات الحجاجيّة اللغوية التي كانت في سورة "النّبأ"؟ وكيف أسهمت في إقناع المتلقّي وتغيير سلوكاته ومعتقداته التي كان عليها؟

محاولة للإجابة على هذه الإشكاليّة تناولنا العناصر الآتية:

1/-تعريف الحجاج (لغة واصطلاحا).

2/-الآليات الحجاجية اللغويّة في سورة النّبأ.

-الحجاج في القرآن الكريم؛

-الآليات الحجاجيّة اللّغويّة في سورة النّبأ.

*الرّوابط الحجاجيّة.

*العوامل الحجاجيّة.

*السّلّم الحجاجي.

*الاستفهام، الأمر، الدّعاء، التّكرار، التّعجّب، الإشاريّات ....الخ.

تهدف هذه الدّراسة إلى الكشف عن الاستراتيجيّات التّخاطبيّة في سورة النّبأ من خلال توظيف الآليّات اللّغويّة المختلفة والتي أسهمت في إقناع المتلقّي لها وتغيير سلوكيّاته وحتى معتقداته إن كان لا يؤمنُ بهذا اليوم العظيم.

ولأجل ذلك ارتأينا أن نتّبع هذه الآليات بالتّحليل وفق مقاربة لسانيّة تداوليّة.

2. تعريف الحِجاج:

1.2لغة: نجدُ في مادّة " حجج" عند ابن منظور: من أمثال العرب: لَجَّ فَحَجَّ؛ معناه لَجَّ فَغَلَبَ مَنْ لاجَّه بِحُجَجِهِ. يُقَالُ: حَاجَجْتُهُ أحاجُّهُ حِجَاجًا ومُحَاجّةً حتّى حَجَجْتُهُ أيْ غَلَبْتُهُ بِالحُجَجِ التي أَدْلَيْتُ بِهَا. والمَحَجَّةُ: الطّرِيقُ؛ وَقِيلَ: جَادّةُ الطّرِيقِ؛ وَقِيلَ: مَحَجَّةُ الطّريق سَنَنُهُ.

والحَجَوَّجُ: الطّرِيقُ تَستقيمُ مرّةً وتَعْوَجُّ أخْرى. والحُجّةُ: البُرْهَانُ والدّليل؛ وقيلَ الحُجّةُ مَا دُوفِعَ بِهِ الخصم؛ وقال الأزهريّ: الحُجّةُ الوجه الذي يكونُ فيه الظَّفَرُ عند الخصومة. وهو رَجُلٌ مِحجَاجٌ أيْ جَدِلٌ. والنِّحَاجُ: التّخاصم؛ وجمع الحُجَّةِ: حُجَجٌ وحِجَاجٌ. وحَاجَّهُ مُحَاجَّةً وَحِجَاجًا: نَازَعَهُ الحُجَّةَ. ومَحَجَّةُ الطّرِيقِ هي المَقْصِدُ وَالمَسْلَكُ.[1]

وجاء في أساس البلاغة للزّمخشريّ في مادّة "حجج": احتجّ على على خصمه بحُجّة شهباءَ، وبِحُجَجٍ شُهْبٍ. وحَاجَّ خصْمَهُ فَحَجّهُ، وفلان خصمه محْجُوجٌ، وكانت بينهما مُحَاجّةٌ ومُلَاجّةٌ. وسلَكَ المَحَجَّة، وعليكُم بالمناهج النيّرة والمَحَاجّ الواضحة.[2]

ووَرَدَ في مادّة (حج) في معجم مقاييس اللّغة: المَحَجّة هي جادّة الطّريقِ، وممكن أن تكون الحُجّةُ مشتقّة من هذا؛ لأنّها تُقْصَدُ، أو بِهَا يُقْصَدُ الحقّ المطلوب. يُقالُ حاججتُ فُلَانًا فَحجَجْته أي غلبْتُهُ بالحجّة، وذلك الظّفرُ يكونُ عند الخصومة، والجمعُ حُجَجٌ. والمصدر الحِجَاج. ويُقالُ: "أنا لا أُحَجْحِجُ في كَذا، أي لا أشُكّ.[3]

2.2 اصطلاحًا: إنّ مصطلح "الحجاج" كان كثير التّداول قديما، ونلاحظُ تعدّد استعماله باختلاف مرجعيّاته، فنجد مثلا الحجاج الفلسفي نسبةً إلى الفلسفة، والحجاج اللّغويّ نسبةً إلى اللّغة، والحجاج البلاغي نسبة إلى البلاغة...وغيرهم.

فإذا تحدّثنا عن الحجاج الفلسفي مثلا كثيرا ما نجده مرتبطًا بمصطلح "الاستدلال" –وهذا هو الأصل فيه–، فهو يعتمد في المُحاججة على " الحُجج المنطقيّة" لإثبات أو نفي قضيّة ما، ونادرًا ما تَرِدُ فيه "الحُجج الواقعيّة"، وإن وردت دائما كانت تحت "الاستدلال"، والغرض الأساسي من ذلك الإقناع.

وفي الخطاب الحجاجي نجد الخطابة الأرسطيّة مثلا " قوّة تتكلّف الإقناع الممكن" كما قال ابن رشد في "تلخيصه" والعمل على جعل الإقناع غرض الخطابة الأساسيّ كان هدف أرسطو الأوّل.[4]

وَنَجِدُ في ذلك تفصيلاً للاستراتيجيّة الحجاجيّة الفلسفيّة عند أبي الزّهراء في كتابه "دروس الحجاج الفلسفي".

وإذا ما عُدنا إلى الحجاج البلاغي لمسْنَا آثاره في تُراثنا العربيّ اللغويّ البلاغي فنجد مثلا الزّركشيّ في "البرهان" يعرّف الحجاج بأنّه: " الاحتجاج عن المعنى المقصود بحجّة عقليّة، تقطع المعاند له فيه."[5]

ونجدُ أيضا حازم القرطاجنّي في المنهاج يتطرّق إلى ما تتميّز به الصّناعة الخطابيّة من إقناع ويُقارنها بالصّناعة الشعريّة وما تتميّز به من تخييل فيقول: " لمّا كان كلّ

كلام يحتمل الصّدق والكذب إمّأ أن يردِ على جِهة الإخبار والاقتصاص وإمّا أن يَرِدَ على جِهة الاحتجاج والاستدلال".[6]

وإذا ما تحدّثنا عن الحجاج اللّغويّ نجِدُهُ يعتمد آليات لغويّة مختلفة للبرهنة بحسب الاستراتيجيّات التّضامنيّة منها، والتّوجيهية والتّلميحيّة ونجد ضمنها الأفعال الكلاميّة (مبحث تداوليّ واسع)، والإحالة، والتّكرار والأمر وغيرها...

عرّف د. طه عبد الرّحمان الحجاج بقوله: "حَدّ الحِجَاج أَنّه كلّ منطوق به مُوجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحقّ لهُ الاعتراض عليها".[7]

وبالتّالي يجبُ أن يكون خطابًا يستوفي الشّروط اللغويّة من طرف مُخَاطِب، ومن ثم الشّرط الثّاني هو التّوجيه إلى مُخَاطَبٍ مُعيّن، والشّرط الثّالث هو شرط الإفهام والشّرط الأخير هو "حقّ الاعتراض" بعد الفهم ومعرفة القصد؛ وعلى هذا نجده يوصِل صفة الادّعاء بالمُخاطِب، وصفة الاعتراض بالمُخَاطَبِ، فالعلاقة بينهما علاقة استدلاليّة قبل أن تكون تخاطبيّة، وبالتّالي فهو يرى أنّ صفة الحجاجيّة لايخلو منها خطاب.

ونجدُ الكثير من المصطلحات تحت هذا المبحث "الحجاج" والتي ترتبط به ارتباطًا وثيقًا منها: الجدال، الحوار، المناظرة، الاستدلال، الدليل، البرهان، الحجج الآيات،...الخ.

ومن أصحاب التوجّه الجديد الذي عُرِف بالبلاغة الجديدة شايم بيرلمان C.Perelman الذي عرّف الحجاج أنّه: " تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التّسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التّسليم."[8]

ويرى أزفالد ديكرو O.Ducrot واضع الأسس اللغويّة لهذه النظريّة منذ سنة 1973م، أنّها " نظريّة لسانيّة تهتمّ بالوسائل اللّغويّة وبإمكانات اللغات الطّبيعيّة التي يتوفّر عليها المتكلّم، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما، تمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية، ثم إنها تنطلق من الفكرة الشّائعة التي مفادها : أننا نتكلّم عامّة بقصد التّأثير." [9]

وهو رأي يُشبه رأي د. طه عبد الرّحمان فهو يرى بتوفير الوسائل اللغوية من طرف المخاطِب ومن ثم توجيهها إلى مُخاطَب لتحقيق أهداف حجاجيّة ومن ثمّ أهداف تأثيريّة فلا يخلو أي خطاب من الحجاج.

3. الآليات الحِجاجيّة اللّغويّة في سورة النّبأ:

1.3 الحِجاج في القرآن الكريم: وردت كلمة "حجاج" في القرآن في عدّة مواضع من سور القرآن الكريم، سواء بصيغة الفعل أم الاسم، ووردت تارة أخرى كلمة جدال كذلك ما بين الاسم والفعل سنحاول ذكر بعضها فيما يلي:

في سورة البقرة:

1/–قال الله تعالى: ﴿**قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا في اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا ورَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ**﴾ (139).

2/–قال الله تعالى: ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلّا الّذينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ (150).

3/–قال الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ الّذِي حَاجَّ إبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ المُلكَ إذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ رَبِّي الذِي يُحْيي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بالشّمسِ مِنَ المَشْرِقِ فَاتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ فَبُهِتَ الّذِي كَفَرَ واللهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظّالِمِينَ**﴾ (258).

وفي سورة آل عمران:

1/–قال الله تعالى: ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا ونِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ** ﴾(61).

2/– قال الله تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجّون فِي إبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التّوْرَاةُ وَالإنْجِيلُ إلّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ (65) ﴿**هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُون**﴾ (66).

في سورة النّساء

1/–قال الله تعالى: ﴿**ولا تُجَادِلْ عَنِ الّذِينَ يَخْتَانُون أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا**﴾ (107).

2/– قال الله تعالى : ﴿**هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا**﴾ (109).

وغيرها من الآيات التي تناولت مصطلح الحجاج والجدال والبرهان والآيات(الأدلّة) للمُحاججة قصد الإثبات والإقناع.

2.3 الآليات الحِجاجيّة اللّغويّة في سورة النّبأ: نجد في سور القرآن الكريم الكثير من الأفعال الكلاميّة التي تتضمّن وظائف حجاجيّة حتّى يكون هذا النّص الإعجازيّ حجّة من خلالها يتمّ البلوغ إلى المقاصد؛ ومن خلال هذه الورقة سنحاول الكشف عن ذلك من خلال سورة "النّبأ".

- التّسمية: اختلف العلماء في تسميتها، وقد أجمع هذه التّسميات الإمام الطّاهر بن العاشور في كتابه التّحرير والتّنوير.

سُمّيت هذه السّورة "النّبأ" لورود لفظ " النّبأ" في أوّلها.

وسُمّيت في بعض المصاحف وفي صحيح البُخاري وفي تفسير ابن عطيّة والكشّاف "سورة عمّ يتساءلون"؛ وفي تفسير القرطبي سمّاها "سورة عمّ" أي بدون زيادة "يتساءلون" تسمية لها بأول جملة فيها.

وتسمّى "سورة التّساؤل" لوقوع " يتساءلون" في أوّلها؛ وتسمّى "سورة المُعصرات" لقوله تعالى فيها "وأنزلنا من المعصرات ماء ثجّاجا"؛ فهذه خمسة أسماء؛ واقتصر في الإتقان على أربعة أسماء: عمّ، النّبأ، التّساؤل، المُعصِرات.[10]

وبما أنّ إنتاج الخطاب يكون بقصد ما، يسعى المُخاطِب إلى تحقيقه باستعمال الآليات الحجاجيّة المختلفة وفق استراتيجيّات محدّدة حسب سياق الخطاب يُمكننا إجمال الأفعال اللغوية المختلفة المذكورة في هذه السّورة خدمة لهذا الخطاب الحجاجي وتحقيقا للمقاصد.

يُمكن تصنيف هذه السّورة تحت صنف "التّقريريات" فالله سبحانه وتعالى يخبرنا فيها عن أحوال اليوم العظيم الذي ينتظرنا جميعا ليأخذ كلّ واحد منا حقّه وحسابه ويُخبرنا عن أهوال يوم القيامة.

هذه السّورة تشكل مُحاججة لأولئك الذين أكثروا السّؤال عن هذا اليوم، فأجابهم الله بهذه السّورة "الحُجّة" والتي تضمّنت العديد من الأدلّة والبراهين.

تضمّنت الصورة أنواع الحجاج المختلفة يمكننا أن نجمل الأفعال اللّغويّة منها وِفق استراتيجيّات خطابيّة متنوّعة حسب ما يقتضيه سياق السّورة.

بدأت السّورة باستفهام "عمّ يتساءلون" وهو فعل لغوي غير مباشر، إذ إنّ الاستفهام هنا غير حقيقي وإنّما المُراد منه التّشويق لتلقّي أخبار هذا اليوم فيما يلي في السّورة، فهو خروج من الغرض الطلبي إلى مقصد آخر يفيد الإنكار، فاستراتيجيّة التّلميح هنا تركت للمتلقّي بابًا لفتح السؤال وفرصةً للتّأويل قبل أن يعرِفَ سياق السّورة، كما أنّ طرح هذا النوع من الأسئلة يُحتمل أن يحمل في طيّاته افتراضا مُسبقًا، يعني ذلك أنّ القارئ أو السّامع لهذا السّؤال سيُدرك أنّ قبل هذا السؤال كان هنالك تساؤل أو اختلاف آراء أو أي شيء من هذا، وللإجابة بالأدلة والبراهين بدأت السورة بهذا السؤال عن هؤلاء الذين يتساءلون عن يوم القيامة فمنهم من صدق به ومنهم من كذّب به، كما ستتوجه اعتقاداتنا إلى أنّ هذه السورة جاءت في فترة زمنيّة تتناسبُ وبداية الدّعوة الذي كثر فيها هذا التساؤل عن الدّين وعن يوم القيامة.

واستعملت "ما الاستفهاميّة" في "عمّ يتساءلون" وكانت تتضمّن التّعجّب، فوجّهت الخطاب من السّؤال والاستفهام إلى الإنكار والتعجّب فتوجّهت بذلك من المعنى الصّريح –الذي هو الأصل–وهو السّؤال عن موضوع تساؤل ما إلى المعنى المضمّن التّلميحي وهو الإنكار والتّعجّب من تكذيب الكفّار بهذا اليوم العظيم.

واستعمل الفعل " يتساءلون" بدل " يسألون"، لأنّ صيغة يتفاعل تدلّ على المشاركة على عكس صيغة يفعل، فالفعل " يتساءل" دلالة على تعدّد السؤال وكثرته من ناحية ودلالة على اشتراك هؤلاء في طرحه من ناحية ثانية (تعدّد السّائلين)، فهو مشاركة يستوي فيها الفاعلون فيسألون نفس الأسئلة حتّي أصبحت أسئلتهم تساؤلات.

كما نجدُ تنوّعا في استعمال الضّمائر فنجد الضّمير "هم" الذي يحيل إلى المكذّبين باليوم الآخر، والضّمير "هو" الذي يعود على "النّبأ العظيم" وهو اليوم الآخر وما يتبعه من أهوال، و"نحن" التي أعطت للمُرسِل سلطةً في الخطاب والعائدة على الله تعالى و"أنتم" التي تعود على المتلقّي لهذا الخطاب القرآني من المؤمنين؛ هذا التنوّع الإحالي للضّمائر يخدمُ الاستراتيجيّة التضامنيّة ما بين عناصر الخطاب من مُرسِل ومُرسَل إليه ورسالة.

المُرسِل (الله تعالى "نحن")---- الرّسالة (النّبأ العظيم "هو")----المُرسَل إليهِ (المتلقي للخطاب القرآني من المؤمنين"أنتم" ، الكفّار"هم")

وفي قوله تعالى: ﴿**عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ** (2) **الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ** ﴾(3)"

استعمال كلمة "**نبأ**" مكان "**خبر**" لأنّ النّبأ أكبر وأعظم من الخبر، فسياق المقام هنا "**يوم القيامة وعظمته**" يستدعي الكلمة الأقوى والأعظم "**نبأ**".

وذكر الطّاهر بن عاشور أنّ الرّاغب قال: " النّبأ الخبر ذو الفائدة العظيمة يحصل به علم أو غلبة ظنّ ولا يُقال للخبر نبأ حتّى يتضمّن هذه الأشياء الثّلاثة يكون صادِقًا".[11]

والظّاهر أنّ هذا جاء خصّيصا لأولئك الذين كانوا في شكّ ممّا أتى به الرّسول صلّى الله وسلّم من القرآن ومن توحيد الله ومن يوم القيامة الذي منهم من صدق به وكذّب به الكثيرون؛ فجاءت هذه السّورة بالحجّة لتثبت ذلك وكان هو القصد.

وتظهر هنا أيضا الاستراتيجيّة التّضامنيّة في انتقاء الله سبحانه وتعالى للكلمات المناسبة وأبرز مثال على ذلك توظيف كلمة "النّبأ" بدل "الخبر" وتوظيف كلمة "يتساءلون" بدل "يسألون" لتحقيق التّواصل والتّقارب مابين عناصر الخطاب "المُرسِل" و"المُرسَل إليه" فذكر صفات هذا اليوم وصفات الكفار والمؤمنين، وأمّا سؤاله فيدلّ على معرفته المسبقة، وجوابه عنهم وتفسيره، أكسبت الخطاب "سلطة" على المُخاطَب فما عليهِ إلّا أن يستسلم لهذا الإعجاز.

ونجد من الأدوات التي تُستعمل في الاستراتيجيّة التّوجيهيّة فعل الأمرالذي ورد في السّورة مرّة واحدة " فَذُوقُوا"، وهذا الفعل يتطلّب الآمر "الله"، والمأمور "الكفّار" والأمر "العذاب"، والعلاقة القائمة بين هذه العناصر تستدعي تدرّجًا من الأعلى سلطة إلى

الأدنى سلطة، وكذا تحمل استراتيجيّة تلميحيّة تكمن في خروج هذا الأمر من غرضه الأصلي إلى الوعيد وتهديد الكفّار، كما نجد عبارات صريحة مثل "ذلك اليوم الحقّ" فاسم الإشارة "ذلك" يُرادُ منه لفتُ الانتباه إلى هذا اليوم العظيم وأهواله خدمةً للقصد من السّورة دائما.

ومثل ما كان الأمر محلّ وضع عناصر الخطاب في موازنة ما، كذلك هو الدّعاء، فالدّعاء يكون من الأقلّ منزلة إلى أعلاها، من العبد إلى الله، وفي قوله تعالى: " يا ليتني كُنتُ تُرابًا"، دعاء الكافر يوم القيامة تحسّرا وندمًا على ما قدّمهُ في دُنياه، وذكرُ هذا الدّعاء نوع من الوعيد الذي ينتظرُ الكُفّار؛ فعبارة " يا ليتني" وجّهت الخطاب من أصل الدّعاء الذي هو الطّلب إلى الحسرة والنّدم والقصد من ذلك الوعيد.

ومن بين الآليّات اللّغوية الحجاجيّة التّكرار، وقد يكون هذا التّكرار واضحا صريحا وقد يكون مضمّنا، فنجد على سبيل المثال هنا "النّبأ العظيم"، فكما قُلنا أنّ دلالة لفظ "النّبأ" لوحدها تدلّ على الخبر العظيم، فجاءت بعدها أيضا صفة العظمة "العظيم" توكيدا على عظمة الأخبار التي تحملها هذه السّورة.

ونجد أيضا : ﴿**كَلَّا سَيَعْلَمُونَ** (4) **ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ**﴾ (5)"، "كلا" هنا حرف جواب يفيد الرّدع للمخاطَب على بطلان كلامه وهي إجابات عن السؤال "**عمّ يتساءلون**" وتكرار العبارة للتوكيد على علمهم لهذه الأشياء الغيبة شاؤوا أم أبوا

كلاّ سيعلمون أنّ هذا اليوم كان حقّاً.

تتضمّن هذه الآية وعيدا قريبا لهؤلاء ومن ثمّ تؤكّد على هذا الوعيد في الآية الموالية فالغرض من هذا التكرار أيضا توكيد الوعيد.

يمكننا تمثيل ذلك فيما يلي:

استفهام (عمّ) ⟸ جواب 1 (عن النّبإ) + جملة اسمية دلالة على الثّبات والاستمرار ⟸جواب2 (كلّا سيعلمون) ⟸جواب3 (ثم كلا سيعلمون) توكيد.

كما نُلاحظ تكرار الأفعال في هذه الآيات الدّالة على مختلف أشكال الخلق، ووجود الأفعال يستدعي فاعلا، وهو "الله تعالى" وبالتّالي فالغرض المضمن في هذا الفعل هو إثبات قدرة الله تعالى وألوهيته ووحدانيّته.

ذُكرت كلمة "يوم" خمس مرّات، وهو فعل لغويّ غير مباشر يتضمّن الإثبات والتوكيد ليوم البعث وحتّى الوعيد.

وفي قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا** (6) **وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا** (7) **وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا** (8) **وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا** (9) **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا** (10) **وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا** (11) **وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا** (12) **وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا** (13) **وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا**﴾ (14).

هنا، لم تسهم الرّوابط الحجاجيّة في الرّبط بين الحُجج فحسب، وإنّما لها وظائفٌ أخرى أيضا منها ترتيب الحُجج وتسلسلها، وكذا تقويتها وتأكيدها، نفيها، وتوكيد نفيها...الخ.

فاستعملت (الواو) بشكل مستمرّ وتسلسليّ بين الحُجج وأسهمت هنا في:

أ- الرّبط بين الحجج وإيصال بعضها ببعض، لذا فهي من أدوات الرّبط للحجج المتساوقة؛

ب- تسلسل الحجج وترتيبها من خلق الأرض والجبال، ثُمّ الأزواج، ثمّ طريقة الحياة وبالتّالي ترتيبها منطقيًّا والقصد من ذلك إقناع المتلقّي بما يُناسب واقعه ومنطقه؛ وكلّما كانت الحجّة من الواقع أقرب كان لها الوقْع الأكبرْ؛

ت- تقوية الحجج، فتمّ ذكر الحجج حجّة حجّة، بحيثُ كلّ حجّة إلّا وتزيد المتلقّي إقناعا لما قبلها، فالقصد من قوّة الحجج وتتابعها هو التّأثير دومًا بشكل أكبر على المتلقّي قارئًا للسّورة كان أو مستمِعًا.

جاءت هذه الحجج مجتمعةً لإثبات علم الكفّار بما كانوا يكذّبون من جهة "**كلّا سيعلمون**"، فسبقتِ النتيجة الحججَ في السّورة.

كما جاءت الواو أيضا لتربط النتيجة واللام لتربط الحجّة بالنتيجة، وسبقت في ذلك الحجة النتيجة في قوله تعالى: "وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا"، وذلك تدعيمًا للحجّة وتأكيدًا.

وجاءت "الفاء" في قوله تعالى في السّورة "فذوقوا"، "فمن شاء"، لتربط بين متغيّرين حجاجين وهما الحجج والنتائج ﴿**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا** (21) **لِلطَّاغِينَ مَآبًا** (22)

لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (23) **لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا** (24) **إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا** (25) **جَزَاءً وِفَاقًا** (26) **إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا** (27) **وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا** (28) **وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا** (29) **فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا**﴾؛ ساهمت الفاء في ربط الحجج بالنتائج وتسلسلها على أساس التّتابع، وهذا ما ساهم في توجيه سلوك المُخاطَب كما أنّها جاءت بين مقابلتين، إحداهما تخصّ أصحاب النّار وجزاءهم، والأخرى تخصّ أصحاب الجنّة ومفازهم وبالتّالي أسهمت في دعم الحجج وتقويتها.

ورد الرّابط "**إنّ**" في عدّة مواضع "إنّ يومَ الفصلِ، إنّ جهنّمَ، إنّهُم كانوا لا يرجون إنّ للمتّقين.."، وأسهم ذلك في توكيد الحُجج وإثباتِها لإبعاد كلّ الشّكوك والإبهام من ناحية وتقويتها لدعم النّتائج "مصير الكفّار والمؤمنين "من ناحية ثانية.

وفي العوامل الحجاجيّة نجد أنّها تختلف عن الرّوابط الحجاجيّة، في كونها لا تربط النتائج أو الحجج أو الحجج بالنتائج، وإنّما تقوم بتقييد وحصر إمكانات حجاجية تكون عند قول كلام ما.

وتعمل العوامل الحجاجيّة باعتبارها عنصرا لسانيًا على توجيه الحدث من نقطة محدّدة إلى نتيجة معيّنة، كما تعمل على تناسق الخطاب وتسلسله من حيث سرد وقائعه والتّعليل عليها. [12]

ترتكز العوامل الحجاجيّة على معظم أدوات الحصر في اللّغة، ونجد مثلا في السّورة "إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (25)"؛ وجاء هذا الحصر بعد توكيد ثمّ نفي فكان عاملا آخر للتّأكيد وإثبات هذا الحصر على الكفّار لا غيرهم.

توكيد ﴿**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا** (21) **لِلطَّاغِينَ مَآبًا** (22) **لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا** (23)" ⟸كفي: ﴿**لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا**﴾ (24) ⟸حصر ﴿**إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا**﴾ (25)؛ فمصير هؤلاء الكفّار الذين كذّبوا بالبعث واليوم الآخر هو جهنّم وفيها خلودهم، فلا مأكل ولا مشرب لهم فيها غير حميمها...فالعامل الحجاجيّ "**إلّا**" أفاد الحصر الذي أراد به التّوكيد والإثبات على هذا المصير.

وقدْ تكرّر ذلك أيضًا في الآية: ﴿**فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا**﴾.. على سبيل الوعيد.

وفي قوله تعالى: ﴿**لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا**﴾ تجسيد لمظهر من مظاهر تأدّب الملائكة مع الله تعالى، فالملائكة لا تعصي لله أمرًا ولا تفعل شيئا من دون إذن الله، فكان هذا الحصر عاملا لتدعيم الحجّة ألّا يتكلّمون بذلك إلّا بعد إذنه تعالى.

وذكر الله تعالى حججا متتالية متدرّجة حسب "سلّم حجاجي" ترتقي من أقلّها إلى أعظمها حجّة لتصل إلى اليوم الموعود ثمّ الوعيد العظيم لمن يكذّب بهذه الحقائق بعد كلّ هذه الآيات والحجج فقال: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا** (6) **وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا** (7) **وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا** (8) **وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا** (9) **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا** (10) **وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا** (11) **وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا** (12) **وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا** (13) **وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا** (14) **لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا** (15) **وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا**﴾ (16).

بدأ هذه الحجج باستفهام " **ألمْ**" وهو استفهام يعقبه نفي، وهو فعل كلامي غير مباشر يتضمّن التّقرير بإيجاد الأرض والجبال وخلق الأزواج وإيجاد النوم والليل والنهار وغيرها.. والقصد من ذلك بيان قدرة الله تعالى في خلقه وتدبير شؤون كونه.

الخلق – الجعل: ربط الجعل بالأرض والجبال والنوم والليل والنهار والسراج، ولم يربط بالأزواج، وربط الخلق بالأزواج، ذلك أنّ الخلق يتعلّق بالذّات والأزواج ذوات عكس الجعل الذي يخلو من ذلك.

وذكره للمِهَاد والأوتاد (من خصوصيّات البيت) على الأرض والجبال، ومن ثمّ الأزواج الذين سيسكنونها، ومن ثمّ أحوال العيش وتقلّبات الليل والنهار ثمّ ذكر أرزاقه وخيراته...مشهدٌ يختصِرُ حياةَ الإنسان...فنجاعة الحجاج هنا تكمن في عدّة محطّات منها الاعتبارات اللّغويّة المتعلّقة بالأدوات وانتقاء الألفاظ، ومنها الاعتبارات النّفسيّة التي تُقنِع المتلقّي وتؤثّر في معتقداته.

من بين الرّوابط الحجاجيّة اللّغويّة هنا "الواو" والتي كانت محلّ وصل بين الحجج وترتيبها وترابطها وتسلسلها لتدعيم وتقوية النتائج التي ذكرناها من قبل.

ومن ناحية أخرى نجد تدرّجا آخر من ذِكر خلق الأرض إلى ما فوقها، من ذكر أحوال الأرض إلى ذِكر بناء السماوات السّبع ومن ثمّ ذِكر الشّمس ثم إنزال المطر لتنعمَ

الأرض برزقها وخيراتها، وهذا التدرّج ليس عبثًا وإنّما هو استدلال من نوع آخر فكأنّ هذه الآيات تنتقلُ بنا بين الحياة والموت في كلّ مرّة، من النوم ليلاً إلى المعاش نهاراً ومن الأرض إلى السماء، ثم عودة من السماء إلى الأرض... بل هي حُجج مضمّنة لأولئك الّذين يُكذّبون بالموت واليوم الآخر وإعادة البعث، وكأنّ الإنسان يحيا ويعيشُ على الأرضِ ليموت ثُمّ تصوّر للبعث بعد الموت من جديد.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا**﴾ (16) بيانٌ للحكمة من إنزال المطر من السّحاب لإخراج مختلف النّبات باستعمال الرّابط اللّغوي "**اللام**".. وهو دليل على قُرب يوم البعث، وكذا يدلّ عليه لفظ "**نُخرِجُ**" بدل "**تُنبتُ**" فإخراج الأجساد للبعث كإخراج النّبات.

يمكنُ تمثيل هذه الحجج في السّلّم الآتي:

النتيجة: التّصديق بقدرة الله تعالى.

الحجّة7: إخراج الزّروع والثّمار

الحجّة6: خلق الماء

الحجّة5: خلق الشّمس

الحجّة4: خلق الليل والنّهار

الحجّة3: خلق الأزواج

الحجّة2: خلق الجبال

الحجّة1: خلق الأرض

وفي قوله تعالى: "**إنّ يوم الفصْلِ كَانَ مِيقَاتًا**" توكيد لإبطال إنكار المشركين بهذا اليوم وتكذيبهم به؛ ثمّ وصف أهوال هذا اليوم العظيم "والوصف" خدمة للتّقرير، وفيها عودة إلى بداية الخلق، وكأنّها صورة معاكسة لما تمّ ذكره من بداية الخلق لتصوير مشهد البداية والنّهاية وما بينهما الفصل.

ثمّ ذكر لمصير هؤلاء المكذّبين وهو جهنّم وأحوالهم فيها، وذُكِرت جهنّم قبل الجنّة تناسُبًا مع الغرض الأوّل وهو الوعيد.

ثُمّ ذكر للجنّة وأحوالها، وعدا للمؤمنين وتأكيدا على الوعيد للكفّار.

بدأت السّورة بسؤال عن تساؤل الكفّار وانتهت بجزاء هذا السؤال ونتيجته وتخلّل السّورة مختلف الحجج وآيات الخلق والموت والبعث لإثبات ذلك، فكان هذا الإقناع يتناسب مع ذهن المتلقّي بمختلف الآليات اللغوية والمنطقيّة لتحقيق هذا المقصد.

4. خاتمة: من خلال هذه الدّراسة المبسّطة نخلص إلى النقاط الآتية:

– الآليات اللّغويّة لها التّأثير البالغ في حجاجيّة الخطاب وإقناع المتلقّي؛

– الاستراتيجيّات التخاطبيّة تختلف وفق معايير محدّدة منها ما يتعلّق بعنصري الخطاب ومنها ما يتعلّق بلغته ومنها ما يتعلّق بالهدف منه، وبذلك قد شملت ما يدور بالخطاب داخله وخارجه؛

– تنوّع الاستراتيجيّات من التّضامن إلى التّلميح إلى التوجيه يفرضه السّياق، وتتحمّل نجاحه الآليات والأدوات المختلفة منها اللغويّة، فإحالات الضّمائر كما ذكرنا في السّورة كانت آليات لغويّة للاستراتيجيّة التّضامنيّة التي فرضها سياق السّورة وهو تكذيب الكفّار بيوم الحساب فكان القصد من ذلك الرّدّ على هذا الاختلاف الذي وقعوا فيه؛

– قد تتقاطع الاستراتيجيّات خدمةً لحجاجيّة الخطاب، مثل أن نجد الأمر توجيهًا يُرادُ به التّلميح إلى أمر آخر كالتّلميح إلى المصير مثلًا؛

– القرآن الكريم خطاباً يصلُ إلى أعلى درجات الحجاج كونه خطاب يحمل مقاصد تتعلّق بالشّريعة ويُلغي معتقدات وسلوكات خاطئة، وهذا ما حاولت سورة النّبأ إثباته من خلال إلغاء التّكذيب باليوم الآخر وذلك بالتّأثير عليهم ترغيبًا وترهيبً؛.

6. قائمة المراجع: **

1. بدر الدّين محمد بن عبد الله الزّركشيّ، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، البرهان في علوم القرآن، مكتبة دار التّراث، القاهرة، ج3.

2. د.أبوبكر العزّاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدّار البيضاء، ط1.

3. أبو الحسن حازم القرطاجنّي، ت. محمد الحبيب ابن الخوجة، 1986م، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3.

4. أبو الحسين أحمد بن فارس، ت. عبد السلام هارون، 1979م، مقاييس اللغة ج2، دار الفكر.

5. د.حمدي منصور جودي، 2006م، الحجاج في كليلة ودمنة لابن المقفّع مركز الكتاب الأكاديمي.

6. الإمام الشيخ الطّاهر بن عاشور، 1984م، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسيّة للنشر، ج3.

7. د.طه عبد الرّحمان، 1998م، اللّسان والميزان، المركز الثّقافي العربيّ، الدار البيضاء، ط1.

8. د. عبد الله العلمي، في الحجاج دراسات لأنواع الخطاب، مركز الكتاب الأكاديمي.

9. أبو القاسم الزّمخشريّ، ت.محمد باسل عيون السّود، 1998م، أساس البلاغة ج1، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1.

10. ابن منظور، لسانُ العرب، دار صادر، بيروت، المجلّد الثاني.

11. هشام الريفي، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم الحجاج عند أرسطو، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانيّة، كلية الآداب منوبة تونس.

7. هوامش††:

[1] ابن منظور، لسانُ العرب، دار صادر، بيروت، المجلّد الثاني، ص228.

[2] بو القاسم الزّمخشريّ، ت. محمد باسل عيون السّود، 1998م، أساس البلاغة، ج1، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، ص169.

[3] أبو الحسين أحمد بن فارس، ت. عبد السلام هارون، 1979م، مقاييس اللغة، ج2، دار الفكر، ص30-31.

[4] هشام الريفي، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، الحجاج عند أرسطو، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانيّة، كلية الآداب منوبة، تونس، ص254.

[5] بدر الدّين محمد بن عبد الله الزّركشيّ، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، البرهان في علوم القرآن، مكتبة دار التّراث، القاهرة، ج3، ص468.

[6] أبو الحسن حازم القرطاجنّي، ت. محمد الحبيب ابن الخوجة، 1986م، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، ص 62.

[7] د. طه عبد الرّحمان، 1998م، اللّسان والميزان، المركز الثّقافي العربيّ، الدار البيضاء ط1، ص226.

[8] د. حمدي منصور جودي، 2006م، الحجاج في كليلة ودمنة لابن المقفّع، مركز الكتاب الأكاديمي، ص90.

[9] د. أبو بكر العزّاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدّار البيضاء، ط1، ص14.

[10] الإمام الشّيخ الطّاهر بن عاشور، 1984م، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسيّة للنشر، ج3، ص5.

[11] الإمام الشّيخ الطّاهر بن عاشور، 1984م، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسيّة للنشر، ج3، ص9.

[12] د. عبد الله العلمي، في الحجاج دراسات لأنواع الخطاب، مركز الكتاب الأكاديمي ص130.